

## الحلقة الثانية والثلاثون

(1) (قصر علي باشا.. شهربان.. هيلدا.. كونراد)

شهربان: ما أسعدني بلقياك ثانية يا كونراد..

هيلدا: باركي لكونراد بمنصبه الجديد.. نال شهادة الحقوق وعين معاوناً للسفير الألماني الحالي.. وبعد بضعة أعوام من الخبرة يحل مكانه في السفارة..

شهربان: ما هذه الأخبار الحلوة التي تتعش القلب؟

هيلدا: تستطيعين التحدث معه بالعربية يا شهربان.. وأنا صرت أفهمها..

شهربان: أبهذه السرعة تعلمت اللغة يا كونراد؟

كونراد: عندنا في ألمانيا مدرسة تعلم اللغات الشرقية: العربية والتركية والفارسية للذين يراد ايفادهم للعمل في سفارتنا، فاخترت العربية لأنّي في لبنان..

هيلدا: سهل له والدي هذا التعيين ليكون قربي، قبل أن ينقل إلى تركيا (تفتح علبة وتخرج منها ثوباً على الطراز الألماني وردي اللون) أنظري ما أحضره لك كونراد لتحضري به حفلات السفارة عندنا..

شهربان: أية حفلات في بلد مسلم! حتى اليشمك لأحب الخروج فيه سافرة الوجه، وأرتدي الملاعة وأغطي الوجه بمنديل أسود شفاف.. ولكنني أستطيع لبس الثوب في الأعراس.. وعن قريب عرس ابنة أخي محمود.. ولكن ما أخبارك يا هيلدا؟ انقطعت عني مدة طويلة فظننت أنك سافرت أو تزوجت..

هيلدا: لم أسافر لأنني كنت أنتظر عودة أخي كونراد، ولم أتزوج لأن القطار فاتني، وكل من في السفارة أصغر مني سناً وأقل تجربة.. السياسة تشغلي عن التفكير في الزواج ولكنها متعة لي.. هكذا أكون أكثر حرية واستقلالاً.. وأنت ما هي أخبارك؟

شهربان: انضم أولادي إلي، وبنتي باكيزا لا تزال ترضع، بعد أن توفيت جدتهم أم مراد.. ولكن ما لبث أن جاء عم والدهم يطالب برعايتهم، واستطاع أن يقنع عثمان ومصطفى بالعودة إلى استنبول لإكمال دراستهما.. وبقي عندي سليمان وعلى الذي أهديته القطار..

هيلدا: آه، نموذج القطار الذي أهدي لوالدي (إلى كونراد) أتذكر مشروع مد سكة الحديد من البوسفور إلى أنقرة؟ إنه الآن قيد التنفيذ بعد أن حصل الرأسمالي أفراد كارلا على الإمتياز..

شهربان: جن علي فرحا به.. يفرده بفخر أمام رفيقاته من أقارب محمود، وأمام إخوته حين انضموا إلى ويريهم كيف يتربك ويعمل على سكة الحديد..

كونراد: أين وصل عثمان ومصطفى في دراستهما؟

شهربان: عثمان في السنة الأولى في كلية الطب، ومصطفى يبقى له عام ليتحقق بأخيه.. لقد قرر كلاهما دراسة الطب..

كونراد: إن من يريد أن يبلغ شأوا في المجتمع، إما أن يدرس الحقوق أو يدخل الكلية العسكرية..

شهربان: كلاهما لا يرغبان لا في الحقوق، ولا في الكلية العسكرية كوالدهما..

كونراد: أتعلمين عن وصول البعثة العسكرية الألمانية برئاسة فون دير غولتس إلى تركيا، لإعادة تنظيم جيشهما بعد احتلال الإنجليز لمصر؟ إن سياسة ألمانيا لم تتبدل في ولائها لتركيا، ودعمها تجاه مطامح روسيا وإنجلترا وفرنسا في تقسيمها..

(2) (مقر لسان الحال.. الأسير وخالد)

الأسير: سأسلمك يا خالد رئاسة تحرير لسان الحال.. انني متعب ولا أحب الحياة ستطول بي.

خالد: أطال الله عمرك يا أبو محمود.. إبق لي مرشدا وناصحا، وأنا أقوم بكل الأعباء المجهدة عنك..

الأسير: أريد أن تخفّ أعبائي حتى في التدريس، وأتفرغ لدراساتي فهي وحدها التي تبقى بعدي، وتشفي نفسي..

خالد: الشباب في الروح، وأنت أكثر شبابا في روحك من من هم في مثل سنّي..

الأسير: أصبحت عصبيا لا أطاق.. أم محمود انتقلت إلى الفيلا التي بناها حسن لسكناه ومعها فريدة وعبد الرحمن.. شعرت بالراحة، ما عدت أطيق شغب الصغار وصياحهم وشجارهم.. أريد الإنفراد بنفسي، أراجع ما أنجزته في عمري، وأحاسب نفسي عما أخطأته به في حياتي عسى أن يغفر لي ربِّي..

خالد: ألك أخطاء تحاسب عليها؟ حياتك كانت منارة، وعطاء قلدت به جيد السماء..

الأسير: نعم أخطأ حين تزوجت فاطمة.. أنايتي هي التي دفعتني لأجدد شبابي بشبابها، فعاقبني الله بسلبها مني بعد أربعة أعوام من زواجهما، ولم أكتف بهذا بل أنجبت منها ولدين لأحمل غيري رعايتها، وأنا أعرف أن صحتها لا تحتمل انجابا متواصلا.. جاءتها الإنفلونزا وهي أوهن ما تكون عافية وقضت عليها!

خالد: لا تحمل نفسك ما أراده القدر لها.. انك مؤمن بأن ما ينالنا من خير أو يصيبنا من شر مكتوب لنا في لوحة القدر..

الأسير: ليس بعد فقدها.. إن الخير والشر الذي نلقاء هو نتيجة لأعمالنا، والأقدار تعرف النتائج ولا تبالي بالمقدمات التي سببتها..

خالد: انك أحسنت معاملتها، وكانت سعيدة معك..

الأسير: ما أدراني بما كان يكفي قلبه؟ أتعرف من كان قربي يوم جنازتها، ونحن نواريها القبر، ونهيل عليها التراب والأزهار؟ كان ذلك المهنديم الذي أخذ يبكي بحرقة قربي هو زوجها.. نظر إلى نظرة غاضبة وقال: ماكانت لموت لوبيت قربي.. كانت تحبني وأنا أحبها، ففرقت ما بيننا! أحسست حينها أن السماء نفسها غاضبة مني، كان بالإمكان أن ينصلح حاله معها حين تنجو له الأولاد وتعيش في سعادة معه، ولا تقضي عليها الإنفلونزا! (الشيخ ينخرط في بكاء حاد) لماذا لم تنج منها كما نجت حنيفة وبافي الناس؟ أنها عقوبة الأقدار لي ياخالد!

(3) قصر علي باشا.. شهربان تهيئ نفسها لحضور عرس ثريا ابنة مصطفى.. تخرج الثوب الوردي من علبته وترتديه.. تساعدها وصيفتها في اللمسات الأخيرة وتصف لها شعرها

الوصيفة: أتلبسين اليشمق والإزار أم الملاعة والنواب؟

شهربان: بل اليشمق والإزار.. كم عرسا سأحضر؟ (الوصيفة تحضر لها اليشمق والإزار الإسود المطرز وعددا من المناديل تختار منها ما يلائم اليشمق، وتلتقت إلى باكيزا لإلباسها الثوب الأزرق المكشكش من قماش الأورجenza الذي أحضرته والدتها لها المناسبة.. على سليمان سبقاهما في ارتداء ثيابهما الفرنجية الرسمية، ومن قبتيهما البيضاوين تطل عقدتان على شكل فراشة حمراء.. يقفن في الباب يتأملان والدتها وأختهما)

شهربان: إلى (سليمان)أغلق جميع نوافذ القصر الخارجية يا سليمان.. لا أحد بقي في القصر إلا نحن.. الكل سبقونا للمساعدة.. وسأعطيك المفاتيح لتعطيها لعمك محمود..

سليمان: أين يكون العرس؟

شهربان: في فيلا الدكتور حسن للنساء، وفي فيلا المهندس أمين الشامي يجري العقد ويأتي المأذون.. ويكون والد العروس نائبا عنها في توقيع العقد..

سليمان: وأنا أين يكون مكاني؟

شهربان: ان طولك كاف لتكون بين الرجال.. فقط باكيزا وعلى يكونان معى..

سليمان: ألن أشاهد العروس؟

شهربان: تشاهدها فيما بعد في أيام المباركة.. هذا اذا سمح زوجها بذلك..

سليمان: ما هذا العرس الذي أذهب إليه ولا أرى فيه العروس؟ فقط لتمتد الموائد ونأكل الطعام!

شهربان: قد يأتون بمعنى يحيي الفرح، وربما يرقص الشباب رقصة السيف ويدبكون الدبكة اللبنانية.. أنا لا أعرف تماماً ما يجري في الأعراس اللبنانية، سترى هناك خالد فتصرف كما يتصرف..

(سليمان ينزل من العربة عند باب حديقة المهندس، يشاهد خالد بين المستقبليين.. العربة تستمر في سيرها إلى فيلا الدكتور حسن)

سليمان: مسلماً (يعرفه خالد على المجموعة التي معه.. يسأله سليمان)

سليمان: هل رأيت عمي محمود.. أريد أن أعطيه المفاتيح

خالد: انه في الداخل، تعال معي لأدلك أين يكون (وهما سائران)  
أخبرني كيف حال أخيك، وأين بلغا؟

سليمان: عثمان سنة أولى في كلية الطب، ومصطفى يلحق به بعد عام.

خالد: وما هي أخبار جلزار؟ هل تزوجت؟

سليمان: كلا، انها تعيش مع أختها أليسار وترعى ولديها..

خالد: إبعث اليها برسالة وقل لها أن خالد أصبح رئيساً لتحرير صحيفة لسان الحال، ومدرساً للغة العربية في كلية الثلاثة أقمار.. فان كانت ترحب بالعودة الي، آتي الى تركيا وأرذّها وأصطحبها معی الى لبنان..

سليمان: (فرحاً) سأفعل ذلك بكل تأكيد وستفرح أمي بهذا الخبر، فلطالما تحسرت على حظها العاثر في التخلّي عنك، ووقوعها بين براثن عمها الجبار.. فهي في تركيا لا يفكّر فيها وهي مطلقة أحد من الأمراء، ولا تستطيع الزواج بأحد من عامة الناس الذي ترفضه عائلتها..

خالد: ها هو عمك محمود يا سليمان جالساً قرب والده يتحادثان، وقربهما مصطفى والد العروس.. انني أنتظرك قرب باب الحديقة..  
(يقرب سليمان مسلماً.. يนาول محمود المفاتيح)

سليمان: سأذهب مع خالد، فأنا لا أعرف أحداً هنا سواه (يلحق بخالد)

مصطفى: (إلى والده) أهكذا تسلم رئاسة تحرير لسان الحال الى خالد  
وتفضله علي؟

الأسير: (يتجهم وجهه بعد ابتسام) ليست لسان الحال ملكي بل ملك الناس الذين يقرؤونها في الوطن العربي كلّه.. إنها تحل محل الجوائب التي أغلقت في تركيا.. وحين اختار لرئاسة تحريرها من يخلفني اختار معاوني، الرجل الكفو المدرب، القادر على حمل هذه الأمانة الشاقة.. أنت لست أهلاً لهذا الحمل الثقيل الذي يهد الجبال، وأنا لست محمد علي باشا يهدم رابطة الإسلام ليورث ملكاً لبنيه.. خالد رجل تمرس بالصحافة منذ نعومة أظفاره، وهو رجل موهوب ضليع في تاريخ تركيا.. يعرف ما يجري في قصور سلطانها، وصراعات القوى فيها، وهو إلى هذا رجل متفرغ لا يحمل هموم أسرة كبيرة كما تحمل..

محمود: لماذا تعكر مزاج والدنا يا مصطفى؟ (إلى والده) ان والد البنات في لبنان لا يحمل هما.. زوج حنيفة منذ عامين إلى تاجر ميسور الحال، وها هو يزوج ابنتهاليوم إلى مهندس ناجح يسكنها في فيلا كالأميرات دون أن يكلف شيئاً.. لا يريد إلا أن يتنسب إلى ناصع اسمك وغزير علمك وحكمتك و... (الأسير يقاطعه خجلاً)

الأسير: أصمت يا محمود، الناس يتواجدون فهم لا استقبلهم.. وأنت يا مصطفى لا تعكر نفسك في عرس ابنتك واستقبل ضيوفك..

(4) (قصر علي باشا.. برق وهزيم رعد، وأمطار غزيرة،  
و العاصفة تلوى الأشجار، تدخل باكيزا غرفة والديها باكية)

باكيزا: ماما أنا خائفة! دعيني أنام قربك!

شهربان: لا! أهي المرة الأولى التي تسمعين فيها الرعد؟ لم الخوف؟

باكيزا: لا أقدر أنام أرجوك ماما أنا خائفة! دعيني أنام قربك ..

محمود: تعالى حبيبتي! في مثل هذه الليلة تستدفه فريدة في سرير جدتها، وعبد الرحمن في سرير والده!

شهربان: محمود لا أرغب أن تدلل الطفلة كثيرا، فتنشأ جبانة، عودي إلى غرفتك باكيزا!

محمود: حرام يا شهربان! الطفلة في الرابعة من عمرها تحتاج إلى اطمئنان.

شهربان: لم ينام علي في استغراق، وهي تلجم في البكاء؟ ربّيت أبناء أربعة ما كان أحدهم يجرؤ أن ينام في سريري! كيف أعلمهم إذن الاستقلال!

محمود: كلهم صبيان. لم تربى مرة بنتا، دعيعها تشعر بحنانك فهذا لا يضيرها!

لا أريد أن أختلف معك في هذا الأمر. صبي أم بنت علي أن أنشئهما على صلابة ليتحدى الزمان. عودي باكيزا إلى فراشك، وأطيعي أو أمري. (تخرج باكيزا باكية) سليمان عودها عادة سيئة، أن لا تنام إلا حين يعزف لها على الكمان!

محمود: الحمد لله أن سليمان كان يعوضها حنان الأم (يدير ظهره لشهربان عند النوم وتستمر شهربان بقراءة رواية بالتركية)

شهربان: (على وشك أن تطفئ المصباح لتنام، تسمع طرقا على الباب الخارجي فتهزّ محمود) محمود أصغ هل نمت سريعا؟ (الطرق يزداد) أهو طرق على الباب؟

محمود: (يصحو) من يزورنا في هذه الليلة الظلماء؟ (يرتدي معطفا فوق منامته ويخرج لفتح الباب).

شهربان: (تسمع صوت هيلدا في الخارج فترتدي معطفا فوق منامتها وتخرج لاستقبالها مع كونراد.. محمود يشغل بإيقاد المدفأة التي خبأ نارها بتزويدها من جديد بالحطب)

كونراد: (بعربىة فصحي محاولا تدريب نفسه على الحديث مع شهربان) هاجمتنا العاصفة ونحن في طريقنا إليك.

هيلدا: (إلى شهربان) نحن على عجلة، جئت وكونراد لنجركم بترك القصر في الحال.. لقد علمنا في السفارية من مصادر وثيقة أن القصر معرض للاقتحام!

شهربان: (في ذعر) أين نذهب في مثل هذه الليلة؟

هيلدا: سنستضيفكم في سفارتنا إلى أن تنجلي الأمور، فإن اشتدت نساعدك على الخروج من البلد، الثورة على الأتراك ناسبة في كل الولايات، علينا للصدقة القديمة ما بيننا، أن ننقذكم قبل فوات الأوان! (يسمع طرق على الباب، يذهب محمود ليり من القادر)

محمود: (نفسه) لرحم الله هذه الأسرة من تقلبات الأزمان! (صوت الأسير في الخارج):

الأسير: افتح يا محمود! (يدخل الشيخ مذعورا) عليك يا محمود أن تترك القصر في الحال، جاءت النذر إلى صحيفة لسان الحال، عن التهاب الثورة في لبنان. جئت على الفور لأنقذك وأسرتك إلى بيتي!

محمود: يا الهي! ماذا جرى؟

الأسير: الأخبار لا تسر! التائرون على حكم الأتراك ينونون بتحريض من الأجانب على دك مؤسساتهم العسكرية والتموينية في لبنان، ومهاجمتهم في منازلهم، وقصر علي باشا أول ما يقتسم في مخططاتهم.

محمود: لا حول ولا قوة إلا بالله! أدخل يا والدي، عندنا هيلدا وأخوها كونراد، ولعلهما جاءا لنجركم لنفس الأسباب. (يدخل الأسير ومحمود الصالة)

شهربان: (منفعلة) مَاذَا جاءَ بِكَ يَا عُمِّي فِي هَذِهِ الْعَاصِفَةِ الْهُوَجَاءِ؟

الأسير: لقد فاجأتنِي وَأَنَا فِي طَرِيقِي إِلَيْكُم.. الْأَخْبَارُ سَيِّئَةٌ وَالوْضَعُ الْأَمْنِي مُنْفَلَتُ فِي الْبَلَد.. جَئْتُ مَسْرِعًا لِأَحْذِرُكُمْ وَأَنْقَلَكُمْ إِلَى دَارِي فَهِي أَكْثَرُ أَمْنًا لَكُمْ!

شهربان: هَذَا مَا كَانَتْ تَحْدِثِنِي عَنْهُ صَدِيقِتِي هِيلَدَا قَبْلَ قَلِيلٍ. عَلِمْتُ مِنْهَا مَا يَجْرِي فِي لَبَنَانَ، وَأَنَّ الْقَصْرَ مُعرَّضٌ لِلْاقْتَحَامِ. أَنَا لَنْ أَغَادِرَ الْقَصْرَ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ، فَإِنْ قَدِرْتُ لَيِّ الْمَوْتَ أَمْوَاتِ فِي فِرَاشِي وَمَعِي أَوْلَادِي!

الأسير: لَا قَدِرَ اللَّهُ لِيَسْ هَذَا بِالْقَرْأَرِ الْحَكِيمِ يَا شَهْرَبَانَ! كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقَصْرِ يَعُوْضُ، أَمَا أَنْتُ وَأَوْلَادِكَ فَكَيْفَ تَعُوْضُونَ إِنْ نَالُكُمُ السُّوءُ؟ أَنْتُ لَا تَعْلَمُينَ بِمَا سِيَّفَ الْفَوْضَى إِذَا عَمِّتَ. عَلَيْكَ أَنْ تَفْكِرِي بِسَلَامَتِكَ وَسَلَامَةِ أَبْنَائِكَ قَبْلَ كُلِّ اعْتِبَارٍ! أَنْتُمُ الْمُسْتَقْبَلُونَ وَخَسَارَتُكُمْ لَا تَعُوْضُ وَتَتَرَكُ الْحَزَنُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ يَحْبُّونَكُمْ أَبْدَ الدَّهْرِ!

شهربان: (بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ وَالدَّمْوَعُ فِي عَيْنِيهَا) تَقْترَحُ عَلَيَّ هِيلَدَا أَنْ أَنْتَلُ وَأَوْلَادِي إِلَى السُّفَارَةِ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ حَمَائِتَنَا وَسَفَرْنَا إِلَى اسْطَنْبُولَ بِسَلَامٍ. كَيْفَ أَسَافِرُ وَأَتَرَكُ باكيزا وَمُحَمَّدَ فِي لَبَنَانَ؟ إِنِّي بَتْ مَرْزَقَةٍ بَيْنَ مَعْسَكَرَيْنَ يَقْتَلُانِ! وَلَوْ بَقِيتُ وَبَاكِيزَا هُنَا كَيْفَ أَحْتَمِلُ سَفَرَ سَلِيمَانَ وَعَلَيِ الْمَهَدَّدَانِ فِي بَقَائِهِمَا هُنَا إِلَى اسْطَنْبُولَ؟ قَدْ لَا أَرَاهُمَا ثَانِيَةً أَبْدًا! سَيَكُونُ فَرَاقًا أَبْدِيَا وَالشَّرَخُ يَتَفَاقَمُ بَيْنَ تُرْكِيَا وَلَبَنَانَ!

الأسير: أَعْلَمُ أَنَّ الْفَرَاقَ عَلَيَّ مُرِيرٌ وَلَكِنَّهُ أَهُونُ مِنْ أَنْ تَخْسِرِيهِمَا إِلَى الأَبْد.. لَنَا مِنَ الْذِي جَرِيَ فِي الْبَلْقَانِ عَبْرَةً، كَانَ الْأَتْرَاكُ هُنَاكَ يَذْبَحُونَ كَالْأَنْعَامِ.. أَنْقَذَيَ وَلَدِيكَ وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ شَاقًا عَلَيْكَ، وَلَا تَرْكِي فَرَصَتِهِمَا الْوَحِيدَةُ لِلنِّجَاهِ تَفَلَّتْ مِنْ يَدِيكَ!

هِيلَدَا: (إِلَى شَهْرَبَانَ بِالْأَنْجِلِيزِيَّةِ) مَاذَا يَقُولُ الشَّيْخُ عَنْ عَلَيِّ وَسَلِيمَانَ؟

شهربان: يَنْصُحُنِي بِسَفَرٍ عَلَيِّ وَسَلِيمَانَ إِلَى اسْطَنْبُولَ، وَأَنَّهَا فَرَصَتِهِمَا الْوَحِيدَةُ لِلنِّجَاهِ مِنَ الْهَلاَكِ!

كونراد: (إِلَى شَهْرَبَانَ) فَهَمْتُ كُلَّ الْحَوَارِ الَّذِي جَرِيَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الشَّيْخِ.. إِنَّهُ عَلَى حَقٍّ وَهُوَ أَدْرِي بِمَصْلَحتِكَ.. هَيْئَيْ حَقِيبَتِي سَفَرَهُمَا فِي الْحَالِ لِنَأْخُذَهُمَا مَعَنَا، وَتَقِيَ أَنْتِي سَأَرْعَاهُمَا كَمَا هُوَ جَدِيرٌ بِالْحَالِ أَنْ

يرعى ابني أخته الغالية عليه.. أوصلهم بالسلامة إلى اسطنبول حيث ينضمان إلى أخيهما، وأرعى مستقبلهما العلمي.. أيقظيهما على الفور، وأخبريهما عن الأساليب التي تستدعي سفرهما، ليحمل كل منهما ما يريد حمله معه!

شهربان: (إلى محمود) أنا صاعدة لأوّل ظهور على سليمان، ولأعدهما للسفر مع هيلدا وكونراد.

محمود: هيئي أيضا حقيقتين لملابسنا فنحن لا ندرّيكم بطول غيابنا!

(5) (منزل يوسف الأسير، صبيحة نهار مشرق، الشمس تطل من النافذة الشرقية لتوظف محمود وشهربان باكيزا نائمة بينهما)

شهربان: من يصدق أن الجو يصحو بعد تلك الليلة العاصفة!

محمود: (ناظرا إلى باكيزا بحنان) يا حبيبتي أنتي إليها كيف تتم هانئه يشرق وجهها بسعادة لا مثيل لها. استغربت البارحة كيف سمحت لها بالنوم معنا!

شهربان: تذكرت كيف لا تتم إلا إذا عزف لها سليمان نغما حلوا على الكمان، وتملكني شعور بالأسى عليها غريب، كيف ستحتمل هذه الطفلة المتنيمه به فراقه! لم أنم طوال الليل وأنا أفكر بوقع فراق سليمان عليها. من يعوضها عنه؟ قبل أن يفارقها سليمان، وقف يتأملها وهي نائمة وقال: كيف تتمامين يا حبيبتي الصغيرة بدون أن يتخلل أحلامك عزف الكمان! وكان علي يبكي قربه بحرقة توجع القلب. منذ أبصرت باكيزا النور كانت ترى وجه سليمان وهو يعزف لها على الكمان وعلى يلاعبها بالألعاب! (يدخل عبد الرحمن الغرفة راكضا كالصاروخ) أين باكيزا؟ أهي نائمة عندنا!

محمود: لا توقظها! لم تتم كفاية البارحة! اذهب والعب مع أختك فريدة!

عبد الرحمن: خاصمتني البارحة فشددت شعرها!

محمود: هكذا إذن! وهل تريد أن تفيق باكيزا لتشدّ شعرها؟

عبد الرحمن: لا أفعل هذا أنا أحبها!

محمود: لماذا صحوت باكرًا؟

عبد الرحمن: أنا أصحو مع أبي حين أسمع آذان الفجر! لكن حين صحوت اليوم لم أجده أبي قربي! سألت جدي عنه فقالت: جاء خالد في منتصف الليل واستدعاه حتى يذهب إلى لسان الحال!

محمود: (يقلق إلى شهربان) لابد أن أحداثا هامة جرت حتى يستدعي خالد والذي في منتصف الليل!

شهربان: (تنهض من فراشها)

لذهب للاستفسار من حالة حنيفة!

محمود: (إلى عبد الرحمن)

أين جدتك يا عبد الرحمن؟

عبد الرحمن: في المطبخ تعد لنا طعام الإفطار..

(يخرج محمود وشهربان إلى المطبخ)

محمود: صباح الخير أمي.

شهربان: صباح الخير خالتى أم مصطفى!

حنيفه: ما أحبت أن أوقظكم قبل أن يعود الشيخ.. كل شيء جاهز  
ماعدا مهلبية الحليب!

محمود: هل أخبرك والدي عن سبب استدعائه في منتصف الليل إلى  
مقرّ لسان الحال!

حنيف: لا، بالعادة يُستدعي إن كانت هناك أحداث هامة تستدعي  
حضوره لكتابة صفحة رئاسة التحرير. اعتدنا الفطور باكرا وها هو  
يتأخر ساعة عن موعده.

(يدخل عبد الرحمن وفريدة لهفين على الفطور لأنهما جائعان، أما  
باكيزا فتقدم من أمها وتحضن خصرها كأنها تشكرها على السماح لها  
أن تنام قربها. شهربان تملّس شعرها)

حنيفه: العبوا في البستان ريثما أهيئ المهلبية، لن ننتظر الشيخ  
طويلا!

(6) (صبيحة اليوم التالي. يدخل محمود المطبخ جزعا وأمه تهئي الفطور)

محمود: أمي أطعمي الصغار وخذلهم إلى بيت أخي حسن وعودي معه ليり ما أصاب شهربان.. حرارتها مرتفعة وكانت تهذي طوال الليل!

حنيفة: ليساعدها الله! لم تكن هينة عليها الصدمة بعد أن علمت كيف اقتحم القصر ونهب ما فيه واحتل!

محمود: كانت تتوبي البقاء في القصر مع أولادها وتموت معهم حتى أقنعوا والدي بأن لا تترك علي سليمان يفقدان فرصة السفر إلى أسطنبول والالتحاق بأخيهما هناك!

حنيفة: بنت العز والرفاهية إلى هذا المصير يؤول أمرها! (تنذر أمرا) بيت حسن خطر على الأولاد منطقته محاصرة. سأخذهم إلى بيت مصطفى، يلعبون مع نجوى وسلمى، ثم أذهب إلى حسن بمفردي. سأمزج النشاء بالماء المثلج لتضعه على جبين شهربان فتخف الحمى. (يخرج محمود ويستدعى الصغار الذين كانوا في أشد الفرح وهم يلعبون "الاستغماية" ويستخفون بين الشجر)

محمود: هيا يا أولاد إلى الفطور.. جدكم ستأخذكم اليوم إلى منزل عمّو مصطفى لتلعبوا مع نجوى وسلمى. (يتراكم الصغار إلى المطبخ. محمود يدخل غرفة نومه ويأخذ في وضع كمادات النساء على جبين شهربان الملتهب، ودموعه تجري على وجنته).

شهربان: (تتمتم بكلام غير مفهوم ثم يعلو صوتها بجمل غير متناسقة): أرقسي باكيزا مع رفيقاتك بثوبك المكشكس! آه ما أحلاك! سليمانأغلق نوافذ القصر.. (ترتعش) ها هم جاؤوا.. أسمع تكسير النوافذ.. إنهم يدخلون.. لا تقتلوا سليمان! إنه يعزف لباكيزا حتى تنام.. أهرب على.. لماذا تنتزعون منه القطار وسكة الحديد فهي لعبته المفضلة.. لا تقتلوا! إنه طفل صغير.. (يختنق صوتها بالبكاء) باكيزا حبيبتي، تعالى نامي قربي.. خباتك تحت اللحاف فلا يروك.. الأولاش ينزعون عنك اللحاف.. شهربان، شهربان! ماذا جرى لك؟ ترتعش وتتنفس

في السرير لرؤيا غامضة) لا تنتزعوا مني باكيزا أقتلوني قبلها..  
وحيدتي.. تزوجت في الخامسة عشرة ولم أنجب بنتا غيرها.. لا، لا يا  
قتلة! تغتصبون طفلة في الرابعة من عمرها! وحوش ذئاب فجرة! ماذا  
فعل لكم علي باشا؟ من آذى منكم؟ من آذى منكم؟ رجل صالح.. يدافع  
عن أمّة الإسلام!

(يدخل حسن والأسير وحنيفة)

حسن: (لامسا جبينها، مصغيا إلى نبضات قلبها) لنحملها إلى  
مستشفى الجامعة! حمّى دماغية أقف عاجزا أمامها!

الأسير: أهناك أمل بالنجاة منها؟

حسن: حالة ميؤوس منها، حتى لو عاشت لا تكون هي نفسها!

محمود: (وقد طاش صوابه) أمي! أحضرني لي شراب البرتقال أقطره  
في فمه.. ألم تعالجي والدي من مرض الكبد فشفي، وأنجب منك دستة  
من الأبناء! (ينهار فوقها يقبلها) لا تتركيني وحيدا يأشربان! حبيبتي...!  
آه..! ماذا أقول لباكيزا حين تعود إلى البيت فلا تراك..؟ (تأخذ حنيفة  
بالبكاء بشكل حاد)

(7) (باكيزا واقفة أمام شباك يطل على الشارع يمر فيه موكب جنائزى.. يمتد أمام عينيها حقل من رؤوس الرجال وهم يهتفون: الله أكبر! الله أكبر! تسمع ترتيلًا للقرآن بنغم خاشع حزين، تمتلي عينها بالدموع وهي تصغي بدهشة، تدخل حنيفة)

حنيفه: انزل حبيبتي والعبي مع فريدة وعبد الرحمن.

باكيزا: لا أريد! أنا مشتاقة لأمي، أين هي أمي؟ لماذا لا أراها في البيت؟ (تبكي بصوت خافت) أين علي؟ أمس كانت نجوى تبكي لأن علي ترك المدرسة. أريد العودة للقصر! أريد أمي! خذوني لأمي! خذوني لأمي! (يعلو صوتها بالبكاء)

حنيفه: حبيبتي، أمك سافرت مع علي وسلمان إلى اسطنبول لأن المدارس هناك أفضل منها هنا.

باكيزا: ومتى تعود؟

حنيفه: عن قريب حبيبتي!

باكيزا: وإذا لم تعد مثل عمتي جنان؟

حنيفه: لا، ستعود، لأنها تحبك كثيراً، ولأنك الصغرى! أكثر من عثمان ومصطفى وعثمان وعلي! انزل حبيبتي والعبي مع فريدة وعبد الرحمن (يمر النعش مغطى بالقطيفة المقصبة والأزهار ليصل إلى عليه في الجامع القريب)

باكيزا: تعالى جدتي أنظري! ما هذا الصندوق الذي يحمله الرجال على أكتافهم؟ وما هذا اللحن الحزين الذي يعزف مرافقا له؟

حنيفه: إنها الربابة!

باكيزا: هل هناك شخص في الصندوق يعزفون له حتى ينام؟

حنيفه: طبعا! روحه صعدت للسماء والملائكة ترفرف فوق نعشها تحملها إلى الجنة لتسقّر فيها، وتعزف لها الألحان حتى تهدأ في سلام!

باكيزا: أين الملائكة؟ أنا لا أراها!

حنيفة: إنها محظوظة عنا! ولكنها دائمًا حاضرة معنا.. لا تشاهدبني وأنا أصلني كيف أسلم على الملائكة عن يميني ويساري؟ الملوك على يميني يسجل حسناتي واليسار أخطائي فأحاسب عليها يوم القيمة!

باكيزا: ما معنى يوم القيمة؟

حنيفة: يوم تعود كل روح إلى ربها حين يحين أجلها! وحينذاك تعرف لها الملائكة الألحان كما يسجل لها الميزان من حسنات أو سيئات!

باكيزا: إنها لا تشبه الألحان التي يعزفها لي سليمان حتى أنس!

(هذا ما كانت باكيزا تذكره عن طفولتها، بعد أن كونت أسرتها الكبيرة، المشهد الأخير لنشء أمها وهي لا تدرى أنها ذهبت في رحلة سماوية لن تعود منها! ولا تدرى شيئاً عن إخواتها الأربع الذين يعيشون في اسطنبول، ولن يرجعوا ولو في زيارة إلى لبنان وقد تقطعت أوثق علاقاتهم فيه، بعد أن علموا بوفاة أمهم شهربان)

\* \* \*